بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. (٢٩)﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف]

وليكُنْ في الاعتبار أن المتكلم رَبٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التى تحتاج إلى التواصى بالصبر والتواصى بالحق ، ولنا أسوة فى هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى فى سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن وللكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذى يُحسِن العملَ قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حَقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن فى علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حَظَّ له فى الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور]

---

(١) العاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة [لسان العرب ـ مادة : عجل] .

فهؤلاء قد استوفوا أجورهم ، وأخذوا حظّهم فى الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِّدتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتى فى الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجىء بوجود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره ممَّنْ عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية وللمجتمع وللشهرة ، وقد نالوا هذا كله فى الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شىء فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ[1] وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

(أولَئكَ) أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جنَّاتُ عدْنٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة فى الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعى : فهو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين فى الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهى المكان الذى فيه زرع وثمار وأشجار تُوارِى مَنْ سار فيها وتستره ؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنَّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شىء غيبىّ يُحدِّثنا بما يوجد فى لغتنا من ألفاظ ، واللغة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

(١) السندس : رقيق الديباج ، وهوالحرير الذى يتلون ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
والإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

ثم يوجَد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنْ نُطق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التى يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

إذن : فمن أين نأتى بالألفاظ الدّالة على هذه المعانى ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق سبحانه بالشبيه لها فى لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذى يُميِّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. ﴿١٥﴾﴾ [محمد]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. ﴿١٥﴾﴾ [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميَّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التى سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فبها ما لا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول ـ صفحة ٦٩ – ٨٥ .

عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذى رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذى رأيته والذى رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسَّع دائرة ما فى الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل ؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفّى .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سدْر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه، ولا يُدْمِى يدك كسِدْر الدنَيا .

وهنا مِيَّز الله الجنة فى الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ .. (٣١)﴾ [الكهف] أى : إقامة دائمة لا تنتهى ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهَبْ أن واحداً يتمتع فى الدنيا بالدُّور والقصور فى الحدائق والبساتين التى هى جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنَّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن فى الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن فى الجنة له مسكن خاص فى جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢)﴾ [محمد] ، وفى آية أخرى يقول : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففى قوله : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجرى (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المبانى عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريَّاح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخُضْرة وللزرع ولقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكُل منزل .

إذن : فى الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١) ﴾ [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التى يتحلَّى بها الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن فى طموحات الإنسان فى زُخْرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب فى الآخرة زينة وزخرف ، وفى آية أخرى ، يقول تعالى : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ .. (٢١) ﴾ [الإنسان]

ومرة أخرى يقول : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) ﴾ [فاطر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه الحلية فى الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن[1] .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١) ﴾ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل (يُحلَّوْنَ) أى : حلاَّهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. (٣١) ﴾ [الكهف]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدِّم الفضل على العمل ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٧١) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٠) ، والنسائى فى سننه (١/٩٣) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبى هريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لى : يا بنى فرُّوخ أنتم هاهنا ، لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء ، سمعت خليلى ﷺ يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء »

أي : إياك أن تقول هذا بعملي ، بل بفضل الله وبرحمته ؛ لذلك نرى الرسول ﷺ يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1] .

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عملك لوجدتَه بعد تكليفك الذي كلفت به في سنِّ البلوغ ، وقد عشْت طوال هذه المدة ترتع في نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشيء ؛ لذلك مهما قدَّمْتَ لله تعالى من طاعات ، فلن تفِي بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سابقاً ومُقدَّماً في الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿يَلْبَسُونَ ..﴿٣١﴾﴾ [الكهف] أي : بما عملوا ، أما في الزينة والتحلية فقال : (يُحلَّوْنَ) كالرجل الذي يُجهِّز ابنته للزواج ، فيأتي لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سَجَّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التي امتنَّ الله بها على عباده ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً .. ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] والريش : هو الكماليات التي يتخذها الناس للفَخْفخة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهي كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التي نتخذها شعاراً في الصلاة وأصلها يمنيّ أو حبشيّ . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربي ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ في لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهي سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التي دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ في الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها في اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه ، والأرائك : هي السُّرر التي لها حلْية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] كلام منطقيّ : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] أي : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ[(١)] جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ ﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسمين : قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوِّى بينهم .

لذلك ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً موجوداً فى الحياة ، ففى الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشىء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

– نزلت فى أخويْن من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فأنفق أحدهما ماله فى سبيل الله ، وطالب أخاه شيئاً فقال ما قال . قاله الكلبى وذكره الثعلبى والقشيرى .

– وقيل : هو مثل لعيينة بن حصْن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوينَ أحدهما مؤمن واسمه يهوذا . فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .

وَيَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَرِ ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر ؟

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثل : الشيء الغامض الذى لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضِّحه ويُنبِّهك إليه ؛ لذلك قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف]

وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ فى معنى من المعانى ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أى جَوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلِقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام[1] فى مدح الخليفة :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنَفَ فِى ذَكَاءِ إياس

فأراد خصوم أبى تمام أن يُحقِّروا قوله ، وأن يُسقطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبِّه الخليفة بهؤلاء وفى جيشه ألفٌ كعمرو ، وفى خُزَّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم : –

وَشبَّهه المدَّاحُ فى البَاسِ والغِنَى بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِى جيْشِه خَمْسُونَ ألْفاً كعنْترٍ وَفِى خُزَّانه ألْفُ حَاتِمِ

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) . نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

فألهمه الله الردَّ عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :

لاَ تُنكروا ضَـرْبى لَهُ مَنْ دُونَه مثـلاً شَرُوداً[1] فى النَّدَى وَالبَاس
فـالله قَـدْ ضَـربَ الاقـلَّ لنُوره مَـثَـلاً مِنَ المـشْـكَاةِ والنِّبْـراسِ[2]

إذن : فـالمـثل يأتـى لِيُنبِّـه الناس ، وليُـوضِّح الـقـضـيـة غـيـر المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت]

وكذا قوله تعالى عن نـقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

ومنه قـوله تعـالى مُـصـوِّراً حـال الدنيـا ، وأنهـا سـريعـة الزوال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[3] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) المثل الشـرود : الخارج عن المألوف والعـادة . والندى : السخاء والكرم . والبـاس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كـوة فى جدار البيت ليست بنافذة ، وتُعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

(٣) الهـشيم : الحطب والخـشب المـحطم الذى تكسَّر . والهشـيم : النبت اليـابس المتكسـر . وتهشَّم الشجر تهشماً إذا تكسر من يُبسه . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

فالمثل يُوضِّح لك الخفيّ بشيء جليّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر[1] الذى أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوِّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه[2] وَغَاص قَذَالُه[3] ... فكأنه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنما صُفِعَتْ قَفَاهُ مرةً ... وأحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِى بالإيمان .

وقوله : ﴿ رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : هما مَحَلُّ المثل : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف]

لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فعلىّ فى التاريخ[4] ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤] .

(٢) الأخادع : جمع الأخدع . وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القذال : جماع مؤخَّر الرأس من الإنسان . [لسان العرب - مادة : قذل] .

(٤) ذكر الماوردى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٤١٣١/٥) : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبى : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشترى به أرضاً فى الجنة وقصراً فى الجنة وفضّل الحور العين والولدان فى جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترّ به ، كما قال تعالى :
﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ۝٧٨ ﴾ [القصص] فتركه الله لعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ۝٨١ ﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيّتان فى المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية فى قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ ﴾ [الكهف]

فقد علّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهى من الفاكهة قبل الزرع الذى منه القوت الضرورى ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهى للزينة قبل الثياب ، وهى من الضروريات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ .. ۝٣٢ ﴾ [الكهف] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن